



دستوبيا عالم غير مواز: المدينة الشيطانية وفي شعر احمد مطر

أ.د. علياء سعدي الجبوري

كلية التربية / الجامعة المستنصرية

توطئة :

الدستوبيا في أبسط مفهوماتها: قانون أخوة يوسف ، "فالإنسان ذئب ل أخيه الإنسان " 1. ظل الادب بالرغم من تعدد اشكاله يحافظ على صورته المثالية لقرون منعت من استيلاء اشكال مغايرة للمدينة اليوتوبية ، اذ بقي ايقاع هذه المدينة الفاضلة يعزف على كل الموضوعات والاشكال والرؤى ، منذ عصر افلاطون ، الذي رسم وجه المدينة المثلى ووصولاً الى الفارابي ، الذي وظف مفهوم افلاطون في سياق اسلامي. 2

كما سار كثير من الفلاسفة والادباء في خلق عوالم مثالية متخيلة ، تتحقق عبر فكرة اللامكان ، بعد التراجع الكبير لاحلامهم في واقعهم المعيش ، "كون الادب اليوتوبي يسعى الى اثبات مثاليته على الرغم مما تعانيه البشرية من حروب وقتل وفوضى " 3.

ومع العزف على أوتار المدينة الفاضلة في الاعمال الادبية ، والذي بدا نمطاً نسقياً في الالتزام ، جاء اتجاه معارض وجه سهام التملل من الواقع ، محاولاً محو زخرفته لينطق بما فيه ، فتلبدت اليوتوبيا حتى تقلصت تدريجياً ، اذ انها قد بنيت "روح الخوف والقلق حتى [عند] انصار العالم المثالي " 4. وبهذا قد ولدت الدستوريا من رحم اليوتوبيا ، فكانت اشبه بصرخة احتجاج زعزعت اركان العوالم المثالية. ودستوبيا : "ادب المدينة الفاسدة ، فهو عالم ليس للخير فيه مكان ، يحكمه الشر المطلق " 5.

وبتتبع لغوي دستوبيا باللغة اليونانية : المكان الخبيث ، وهي عكس المكان الفاضل 6 وادب الدستوبيا هو احد المذاهب الأدبية القديمة مثل ادب الطغيان ، وأدب المقاومة. "واول من اشار الى مفهوم الدستوبيا هو المفكر الانكليزي (جيرمي بينثام) في حديثه عن الاماكن الفاسدة او السيئة ، لكنه استخدم تسمية (كاكو توبيا) اي المكان المتخيل الافسد 7.

برزت دستوبيا رد فعل طبيعي في الادب العالمي بصورة عامة والعربي على الخصوص ، بعد فشل الثورات للاستعانة بها في تفسير الواقع ومواجهته .

وربما جاءت الدستوبيا نوعاً من المحاكمة لنمط ادبي راكد ، فتوالت الكتابات الادبية المفصلة لها في الغرب ، والتي غدت اكثر رواجاً تتصدر قوائم المبيعات 8.

وكان تلفتي الى شعر احمد مطر ، كونه حقلاً فيه من بذور الدستوبيا الكثير والتي سقيت بتجربة شخصية حتى صارت اشجاراً تحمل ثماراً ابداع الشاعر في تشكيلها .

واحمد مطر جريء في اختراق الفضاءات الخفية ، ورصد عيوب الواقع ، حتى كان شعره ضاحكاً بالتنوع والمشاكلة . فهو قد بدأ بداية بيضاء ، فكتابات فضاء مفتوح لم تلتزم بالمألوف والسائد ، مستنداً على قاعدة نشأته : اذ كان الابن الرابع بين عشرة اخوة ، وعانى من سطوة الفقر ، كما انه اخفق في دراسته ، فلجأ الى الكتاب ، لينزلق بعده الى السياسة ، فكتب قصائد سياسية ، في محاولة لصب دواخله في قوالب السياسة ، فسجن لمرات عدة ، وقُتل اثنان من اخوته في حادثتين مختلفتين ، فضلاً عن مقتل صديقه الفنان ناجي العلي في لندن بمسدس كاتم 9.

واحمد مطر الشاعر مختلف ، لم يعتمد على نظام تأمين العلاقات وتأليه الواقع ، اذ جاء شعره عبارة عن تنقيب بتجاوز المعطيات ، من اجل فتح جديد غير مخطط له ، يخلق الدهشة ويعري الواقع ، فصنع من ظرفه تحدياً الامر الذي افرز معطى يكسر النمط القالبي ، ويحقق وجوداً استثنائياً للشاعر بفرادة خطابية ، والتف بعدها متشيعين ، حتى تفرعت عنه نماذج اخرى خرجت من معطفه.



والقى احمد مطر في سن مبكرة من عمره نفسه في دائرة النار 10. اذ لم تطاوعه نفسه على الصمت، ولا على ارتداء ثياب العرس في المأتم، فاضطر الى مغادرة العراق الى الكويت، هارباً من مطاردة السلطة

والشاعر كان لا يؤمن بالمشهد الثقافي العربي لما فيه من الكذب والنفاق والمجاملات 11. وهو قد صاغ لنفسه هوية تعريفية يعرف فيها نفسه بمفردات يقول :
ارتباطي : هو ارتباط بقضية كل انسان ضعيف ومستلب
حالي الاجتماعية: رب بيت
شغلي : كنس العروش الفاسدة
مكسبي : احترامي لذاتي

مسارتي: ارباح اصبحت لكثرتها اغنى الاغنياء ، ففي كل صباح استيقظ اجدني معي احمد الله 12.
وكان لابد للشاعر من وعي استثنائي يمكنه من ان يصبح مرآة لنقد المجتمع والسياسة، اذ تلمس الحافة الدقيقة من الواقع ، واستطاع ان يحوله الى شعر صرخوي رافض، فالواقع السياسي العربي برأيه هو " ملعب امريكي، فيه اثنان وعشرون لاعبا، فريق منهم في الجهة الشرقية، وفريق في الجهة الغربية، يختلفون ويتناهرون على متابعة الكرة، ولكنهم جميعا يتفقون على قاعدة لعب واحدة " 13.
اما الواقع الاسلامي عنده فهو: "محكمة تضع القرآن في قفص الاتهام، اما الواقع السياسي العالمي: فهو مسرح يعرض نصا مؤلفته ومخرجته وممثلته امريكا 14.

كل هذا دفع الشاعر ان ينهض بعملية تبني القوانين الالاجمالية، فتأسست هويته الابداعية، التي رفضت السير في مضمار المدن الفاضلة وتزيين الواقع بما ليس فيه، حتى وصل الى مصداقية صادمة حفظته من التلاشي في الادب الممنهج.
ونظرا لكثرة قراءتي لنتاج احمد مطر، وجدت ان اصبه في قوالب الدستوبيا التي جاءت من اجتهادي، متوافقة مع صرخات الشاعر. وقد قسمت البحث الى مباحث :

المبحث الاول: تمظهرات الدستوبيا في شعر احمد مطر

المبحث الثاني : ترسيمات المدينة الدستوبية

المبحث الثالث : شخصيات دستوبية

المبحث الاول: تمظهرات الدستوبيا في شعر احمد مطر :

يجتهد المبحث هذا في الكشف عن تمثيل الدستوبيا في شعر احمد مطر، نتيجة ظروفه، والسعي لتجسيدها كتابيا، والاقتراب المشاكس من مناطقها الساخنة، الامر الذي ادى الى ابراز خصوصية عمل، والكشف عن اسرار وخفايا محيطية، فكانت هذه " الوحدات المتناقضة اشعاعا قابلا للانسجام تتألف في فضاء الحرية الذي يحتويه النص " 15.

وقد عبر الشاعر عن دستوبيا الخوف، فخلق في قصيدة (كلب الوالي) مفارقة حققت دهشة في قلب ميزان العدالة، فكلب الوالي هو من تسمم بعد ان قام بعض الشاعر . يقول :
كلب والينا معظم /عضني اليوم ومات/ فدعاني حارس الامن لاعدم /عندما اثبت تقرير الوفاة /ان كلب السيد الوالي تسمم 16.

مفتتح النص يقاب موازين القراءة (الكلب عضه ومات) فتتحقق وقفة قرائية لمحاولة الفهم، يسترسل الشاعر بمد النص بنسج الدهشة (فدعاني حارس الامن) ليبلغه ان (كلب السيد الوالي تسمم) نتيجة عضه



الكلب للشاعر . عندها يرضخ الشاعر الى نتيجة تقرير الوفاة ، فلم يستطع ان يعترض وعندما روى الحكاية التزم اللفظ المؤدب (كلب والينا المعظم) ، عندها قبل الاعدام راضخا .

ولاحمد مطر طاقات استشرافية ، وظفها عبر سلاح السخرية لرسم مدينة دستوبية ، يحاول من خلالها التوازن لمواجهة الحقيقة ، بابرار عيوب المدينة غير الفاضلة ، فكان التركيز على مواد اسست هيكلية دستوبيا . ومن تلك المواد : القمع والترهيب ، اذ استغل الشاعر هذه المادة بالاقتراب المشاكس ، وتسليط الضوء على اشتغالها واقعيا . وهذا ماظهرته قصيدة (السلطان الرجيم) :

قلت له كفك يا شيطاني / فإن مالمقته كفاني / اياك ان تحفر
لي / مقبرتي بمعول الاوزان / فاطرق الشيطان ثم اندفعت /
في صدره حرارة الايمان / وقبل ان يوحى لي قصيدتي /
خط على قريحتي / اعوذ بالله من السلطان 17

الشاعر حبيب دستوبيا ، التي فاقت كل قوانين الانحطاط فالاستثناء يحرك المشهد السوري ، اذ يظهر الشيطان فيها احسن السيئين ، اذ جاءت محاولاته الخيرة في ان يحرك قريحة الشاعر بتحريضه على كتابة قصيدة جديدة ، غير انها في عرف دستوبيا مقبرة تحفر بمعول الاوزان ، فتتعمق صورة الاستلاب والقمع ، ويتجسد الشيطان فيها ملاكا يستعيز من شر السلطان .

كما ان مادة القمع والترهيب تفرز القوانين الجائرة ، التي تصادر الحريات . يقول في قصيدة (القضاء) :

نظر القاضي طويلا في ملفات القضية / بهدوء وروية / ثم لما
ادبر الشك ووافاه اليقين / اصدر الحكم بأن يعدم شقفا / عبرة
للمجرمين / / اعدم اليوم صبي / عمره سبع سنين 18

ابتعدت الصورة في النص عن التفاصيل ، فهي صورة مباشرة للقضاء الدستوبي ، فالقاضي الحكيم (ظاهريا) ، يقرأ بهدوء وروية ملفات المتهم ، حتى توصل لحكم (عادل) باعدام طفل عمره سبع سنوات ، وهنا تكون قاعدة الدستوبية رخوة هشّة يحكمها اللاقانون .

اما الاعلام فهو موجه ، يرسم قانون دستوبيا بشكل احترافي . يقول في قصيدة (قلة ادب) :

قرأت في القرآن / تثبت يدا ابي لهب / فأعلنت وسائل الاذعان /
إنّ السكوت من ذهب / احببت فقري لم ازل اتلو / وتب / ما
اغنى عنه ماله وماكسب / فصودرت حنجرتي / بجرم قلة
الادب / وصودر القرآن / لانه حرضني على الشغب 19

من المفترض ان يُمنح النص ابعادا استعلانية مستمدة من سورة المسد ، ترسم نهاية طاغية ، غير ان السورة وظفت بدلالة عكسية ، فالشاعر بدأ بتلاوة (تثبت يدا ابي لهب) لينذر من قبل وسائل الاعلام (الاذعان) بأن الخنوع والسكوت لا بديل له ، ومازال الشاعر يتلو السورة متنازلا عن الذهب (احببت فقري) ، وهنا لا بد من مصادرة حريته المتمثلة باسبغ افعاله (صوته) ، ثم صودر القرآن الكريم اقدس المقدسات ، فتموت كل فضيلة لانها تخالف نهج الاعلام الموجه .

ومن وسائل القمع الاعتقال . يقول الشاعر في قصيدة (ثورة الطين) :

وضعوني في اناء / ثم قالوا لي تأقلم / وانا لست بماء / انا
من طين السماء / واذا ضاقت انائي بنموي / يتحطم 20



يقوم النص على تحديد حركة الناص (الطين) بأن وضعوه في إناء واجبروه على التأقلم، فحاول الاعتراض بأن اصله من طين لاماء، فليس بمقدوره ان يأخذ شكل الاناء الذي يحتويه، فهو قد حذرهم من عواقب تأقلمه لاختلاف طبيعته الطينية، اذ انه مستقبلا سينمو ويكسر الاناء، دلالة على رفضه الاعتقال الذي لا يوافق طبيعته.

ومن هيكليات المدينة الدستوبية مصادرة الحريات الفردية: كان احمد مطر جريئا في التعامل مع موضوعات كهذه، فكشفت قصائده عن كمية استلاب حقوق تجسدت عبر ادوات: كالرقابة، والدعاية، والقمع والعقاب، فلم يعلن الشاعر رفضه بكلمات ايحائية خجولة، انما بقصائد مباشرة تدين صدام ونظامه، حتى لاحقته السلطات، فاضطر الى توديع الوطن والتوجه الى الكويت. فمصادرة القلم تعد اشرس المصادرات للحرية الفردية 21. يقول في قصيدة (وظيفة قلم):

عندي قلم/ ممثليء يبحث عن دفتر / والدفتر يبحث عن
شعر / والشعر باعماقي مضمير/ وضميري يبحث عن
امن / والامن مقيم في المخفر / والمخفر يبحث عن قلم /
عندي قلم / وقع ياكلب على المحضر 22

مفتتح النص وانغلاقه يكمن في مشكلة تتلخص في (عندي قلم)، فاستعمال القلم يمر بمنظومة تسلسلية، فالقلم بطبيعة الحال يبحث عن دفتر، والدفتر يريد ما يستحق ان يكتب به كالشعر مثلا، والشعر يكحه ضمير يرفض الاستلاب، والضمير يحتاج الى تفريغ مافي جعبته عندما يشعر بالامن، وهنا تتحول دلالة الامن الى ضدها، فهو مخفر يبحث عن قلم معارض حر ليقمعه، عندها يتجرد الشاعر من انسانيته بسبب (القلم) في عرف حكومته حتى ينعت بالكلب.

والبحث عن الذات كانت ردة فعل الشاعر عن مصادرة حريته، فخلاصه بأن يتشكل بهيئة غير انسانية، لعلها تساعد في تحمل الضغوطات، فهو الان يريد ان يكون حمارا. يقول في قصيدة (البحث عن الذات):

ايها الحمار الطيب / اريد ان انهق مثلك / وان انتقل دون
هوية او جواز سفر مثلك 23

ويستمر النص حتى يتوصل الحمار الى نتيجة، ان الشاعر ليس بحمار، بل اكثر حمورية: (لعلك بغل) وهنا راح الشاعر يتوسل لعله يصبح بغلا. يقول:

ايها البغل الصنديد / اريد ان اكون قويا مثلك / لكي استطيع
تحمل كل هذا القهر / واريد ان اكون بليدا مثلك / لكي لا
اتألم مما اراه في هذا الوطن / قال البغل: / كن من يمنك؟ /
-تمنعي ذلتي وشدة طاعتي / -اذن انت لست بغلا / -وماذا
اكون؟ / اعتقد انك كلب 24

حتى يصل الى البحر ويتحاوران، فيفتنع بنصيحة البحر:



لماذا لا تشنق نفسك؟ ومن يعطيني ثمن الحبل / لا تملك حبلا؟
اخنق نفسك بنيا بك / الا تراني عاريا ايها البحر العظيم /
اسمع لم تبق الا طريقة واحدة / انها طريقة مجانية وسهلة /
لكنها ستجعل انتحارك مدويا / ارجوك ايها البحر العظيم /
قل لي بسرعة / ماهي هذه الطريقة / - ابق حيا 25

يمارس الواقع المتشدد سطوته عبر مرايا مصغرة ، تضيق الحيز الرؤيوي والفكري ، فكلما اراد الشاعر مسخ انسانيته للخلاص من واقعه تنكمش الصورة لتصغر ، فالشاعر اراد ان الحصول على بعض الحرية بالتحول الى (حمار) ، ليكشف له الحمار سرا بأنه (اكثر حمورية منه) فلا يصلح الا ان يكون بغلا . عندها يتملق الشاعر البغل بلفظة (الصنديد) ، محاولا ان يصل الى بلادة البغل ، وهنا يطرح البغل سؤالا متعجبا : ومن يمنحك ؟ فتكون الاجابة صادمة للبغل ، تمنعني ذاتي وشدة طاعتي ، فيخضم البغل الاجابة بأن الشاعر ادنى مرتبة منه فهو قد يكون كلبا ، وتستمر محاولة الشاعر للتشكل محاولة لاستبدال انسانيته ، حتى يصل الى تلاشي الشاعر الذي وجد ان انسانيته ادنى من ادنى موجودات الكون ، فيقترح عليه البحر حلا لازمته ، بأن يتشكل تشكلا هداما اقسى من الموت ، وهو البقاء حيا . وعندها تقفل الصورة بسوداوية بحياة اقسى من الموت نفسه .

ومن مواصفات قتلة الحريات في الوطن ، ان تكون هذه الشخصيات لها كاريزما خاصة ، يغلفها الطابع الديني . يقول في قصيدة (حجة سخيفة) :

بيني وبين قاتلي حكاية طريفة / فقبل ان يطعنني / حلفني بالكعبة الشريفة / ان اطعن السيف انا بجنتي / فهو عجز
طاعن / وكفه ضعيفة / حلفني ان احبس الدماء / عن ثيابه
النظيفة / فهو عجز مؤمن / سوف يصلي بعدما / يفرغ من
تأدية الوظيفة / شكوته لحضرة الخليفة / فردّ شكواي / لان
حجتي سخيفة 26

يستخدم الشاعر كامرتين في تصوير الواقعة ، تعمل الاولى بفعالية حفر وخرق ، اذ تصور الداخل ، فتفتحه على الخارج ، فما كان من الداخل هو جريمة قتل متعمدة بوجود اداة الجريمة الخاصة بالعجز ، والتحريض بدفع الشاعر ان يقتل نفسه بنفسه بطريقة غسل الدماغ . اما كاميرا الخارج ، فتبدأ التقاطاتها من العنوان : (حجة سخيفة) اذ ردت الدعوة على المقتول لكون العجز لم يتدخل فيها لضعفه ولتقواه . وهذا مظهر للعيان .

ومن هيكل المدينة الدستوبية ايضا غسل الادمغة ، التي هي انتزاع هوية الفرد ، واستبدالها بهوية موجهة ، تخدم جهة معينة ، وغسيل الادمغة "مزيج قاتل جديد من الايديولوجية ، والتكنولوجيا ، والطب ، والعلوم النفسية" 27 .

وصب غسيل الادمغة في بداية الخمسينيات والستينيات في القرن العشرين في ترويض وعلاج اولئك الذين يفترض من انهم يعانون من اضطرابات عقلية حادة ومزمنة ، من خلال استئصال الفص الجبهي . بعدها تطور علاج حالات ذهنية مطيعة او متحمسة للدولة 28 .



والشاعر احمد مطر سجل خسارته ارباحا بعد ان رفض غسل دماغه فقال: (خساراتي اصبحت لكثرتها اغنى الاغنياء، ففي كل صباح استيقظ اجدني، فاجدني معي فاحمد الله، ثم ابدأ بتفقد كنوزي: ادق قلبي الجريح، فترد كبريائي انا هنا. اتفحص جيبي المثقوب، تضحك اناملي لا تتعب نفسك. لم اقبض صكا من سلطان، اتلمس روعي تبسم الامها. اطمئن، لم يستطيعوا اغتصابي، افتح كتابي يلهث في وجهي قائلا: صادروني اليوم الفلاني، وطول جولتي يسليني ضميري بدنونة لا تتقطع لم نمدح شيطاننا 29. يقول الشاعر في قصيدة (اعترافات كذاب):

قلت لكم: إن فمي / في احرفي مذاب / لان كل كلمة مدفوعة
الحساب / لدى الجهات الحاكمة / استغفر الله فما اكدني / فكل
ما في الامر ان الانظمة / بما اقول مغرمة / وانها قد قبلتني /
في فمي / فقطعت لي شفتي / من شدة الاعجاب 30

الشعر هو منطقة ملغومة لدى السلطات، وان اي كلمة تخرج عن الخط الافقي ستهلك قائلها، غير ان الخوف في النص محرك دينامي فعال، اذ استطاع اقتناع الشاعر بأيدولوجية جديدة، فكان العنوان انسحابا موقفيا، وقرارا بكذب سيكون، لهذا بدا الشاعر اعترافاته، فلم يملك من شدة كذبه الا ان يستغفر (استغفر الله فما اكدني). لهذا كان قطع الشفاء نسقية تكون قصديتها شدة الاعجاب لا العقاب.

وقد ضلل الشعب عن حقائق، اذ خلقت الدولة له حكيما هو (عبد الذات) ودوره يكمن في غسل ادمغة الشعب بالتنشيط. يقول الشاعر في قصيدة (القرصان):

بنينا من ضحايا امسنا جسرا / وقدمنا ضحايا يومنا نذرا / لنلقى في غد نصرا / ويممنا الى المسرى / وكدنا نبلغ المسرى / ولكن قام عبد الذات يدعو قائلا: صبرا / فالفينا بباب الصبر قتلانا وقلنا انه ادرى 31

الشعب سلم القيادة من دون ادنى تفكير لعبد الذات وهو رمز لكل متفرد بالقرار لايهمه سوى نفسه، فضحايا الامس ليسوا الا جسر يعبر عليه ضحايا اليوم، الذين يطمحون الى العلا نصرا، غير ان الثقة العمياء بعبد الذات اوقفت مسراهم، بكلمة واحدة (صبرا)، التي قطعت الطريق على انتصارهم، فيتحول الضحايا الى لاشيء على باب الصبر، ومن بقي اقتنع باستبدال كلمة النصر بالصبر بزعمهم ان عبد الذات هو ادرى بمصلحتهم.

المبحث الثاني: ترسيمات المدينة الدستوبية

في بعض الاحيان يلجأ احمد مطر الى ترسيم المدينة الدستوبية وفق خاصية الدائرة الضيقة، محددة بازمان مختلفة، مكهربة بشحنات شعورية، متنوعة الامكنة القائمة بالشعور والالوان، مؤتثة باشياء محددة الادوات. وهي شد بين ترسيم فنتازي تعتمد هيكلية غرائبية او عجائبية، وبين دستوبيا واقعية، تمتزجان معا لترسم دستوبيا احمد مطر.

وللمدينة الدستوبية آليات تشاكلية رسمت معالمها:

الزمكانية الدستوبية: الزمن فيها دوري، فهو يدور في حلقة مفرغة، اذ لا تراجع ولا تقدم، او قد يكون زمنا فانتازيا تحفه الدهشة الغرائبية والعجائبية.



اما الاماكن فتتشكل وفقا لرؤية الشاعر ، التي استطاعت ان تتشكل وفقا لوجدان الشاعر 32. فالزمان والمكان لا يخضعان الى ايقاعية الواقع في اغلب قصائد احمد مطر . يقول الشاعر :

اينع الراس "وطلاع الثنايا" / وضع اليوم العمامة / وحده
الانسان والكل مطايا / لا تقل شيئا ولا تسكت امامه / إن في
النطق الندامة / انت في الحاليتين مشبوه / فتب من جنحة
العيش كإنسان / وعش مثل النعامة 33

يتهيكل المكان مشدودا للشعور السوداوي الناتج عن ضغط الخارج ، باستحضار زمان الحجاج الدموي يوم تولى على الكوفة فقال مستشهدا بقول سحيم بن وثيل الشاعر المخضرم انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني 34

استجلاب الحجاج بزمكانيته هو محرق النص ، فالتناص معه يخلق جوا من الاذلال والقهر للمخاطب ، (انا ابن جلا وطلاع الثنايا) فهو ينصب نفسه سيدا بالقوة ، ليشكل مفتتح احمد مطر (اينع الراس) نصا دائريا ، بدأ من النهاية بنضوج الرؤوس لتحصد اذا ما خالفت الامر 35
وهنا فإن الحجاج هو فقط من يرتقي الى مرتبة الانسان والكل (مطايا) ، فلا بد من السكون بين الضدين (لا تقل / لا تصمت) لان في كليهما الندامة ، لذا فالانسان في زمكانية الحجاج (جنحة) ، وفضل طريقة للبقاء حيا ان يتحول الى حيوان النعامة التي تدفن راسها بالتراب اذا ما خافت .

والزمكانية هلامية تشي بالضبابية والرخاوة . وهذا جلي في قصيدة على باب الشعر :

حين وقفت بباب الشعر / فتش احلامي الحراس / امروني ان اخلع راسي / واريق بقايا الاحساس / ثم دعوني ان اكتب شعرا
للناس / فخلعت نعلي بالباب / ثم دعوني وقلت خلعت
الاخطر / يا حراس / هذا النعل يدوس / ولكن / هذا الراس
يداس 36

تتراقص الزمكانية في ظل سوداوية الشعور ، ليظهر المكان (باب الشعر) زلزلة توصل من يدخلها - الشاعر حصرا - الى مقصلة (اخلع راسي) عندها يموت الاحساس ، فتبدأ مرحلة كتابة شعرية جديدة ، يصبح فيها (النعل) الذي يدوس اعلى درجة من الراس الذي يداس .

في المدينة الدستوبية يتخيل الشاعر زمكانية دورية ، تدور في حلقة مفرغة ، تحجم القران الكريم / دستور الحياة . يقول ، في قصيدة (الخلاصة) :

آه لو لم يحفظ الله كتابه / لتولته الرقابة / ومحت كل كلام /
يغضب الوالي الرجيم / ولا مسمى مجمل الذكر الحكيم / خمس



كلمات / كما يسمح قانون الكتابة/هي /قرآن كريم / صدق
الله العظيم 37

اطمأن الشاعر الى الاية القرآنية الكريمة" انه لقرآن كريم في لوح محفوظ"38. غير ان مايتوافق مع مفهومه للمدينة الدستوبيا هو تحجيم القران الكريم ، ف(الرقابة) في تلك المدينة لها سلطة اعلى ، تمنع ما يغضب الوالي وان كان قرانا . عندها يتكون القران القرآن من عبارتين فقط (قرآن كريم/صدق الله العظيم) ، وبذلك لاهمية لمكان وزمان واشخاص بعد ان يلغى الدستور ويتحول الكون الى مساحة بوهيمية . ولجأ الشاعر الى زمكانية غرائبية ، تسبح في تيار فانتازي. يقول في قصيدة (الدولة):

قالت خبير /شبران ولا تطلب اكثر / لاتطمع في وطن اكبر/
هذا يكفي /الشرطة في الشبر الايمن /والمسلخ في الشبر
الايسر / انا اعطيناك المخفر / فتفرغ لحماس وانحر /
ان القتل على ايديك سيغدو ايسر 39

يرسم النص زمكانية غرائبية ، فالدولة مساحتها (شبران). ناطقتها الرسمية هي خبير رمز الرذيلة والنفاق والغدر ، دولة من شبرين . جانبها الايمن (الشرطة) ، وفي جانبها الايسر (المسلخ) ، جانبين من الرعب والموت ، ليتناص النص مع الاية القرآنية الكريمة التي جاءت على لسان (خبير):" انا اعطيناك الكوثر "ليبادل النص لفظيا بين الكوثر والمخفر دلالة الانحسار والتقيد ، واستبدال عبارة (صلي لربك وانحر) بعمارة (تفرغ لحماس وانحر) وهو استبدال الروحاني بالشرطي ، فبدل الصلاة وذبح القرابين لله تعالى ، يكون التفرغ لحركة حماس الفلسطينية لينحرون كما الشاة ، عندها لابد من خلق اطار اقناعي من قبل (خبير) بالقتل المبرر ، اذ سيكون ايسر . وهو جو دستوبي زمكانيته مؤطرة باطار ادهاشي .

والزمكانية في قصيدة (مواطن نموذجي) عجائبية ، تنقطع عن الايديولوجية النسقية :

ياايها الجلاد ابعد عن يدي / هذا الصفد /ففي يدي لم تبقي
يد /ولم تعد في جسدي روح /ولم يبق جسد /كيس من الجلد
انا /فيه عظام ونكد 40

الشاعر في النص ذو حضور ملغي ، فلم تعد للاصفاة اهمية بذوي الجسد ، وانتفاء وجود اليد ، ليتحول الشاعر الى (كيس من الجلد) فيه عظام ، دلالة اللاشيء وان كان على قيد الحياة ، اذ اختفت الروح (المعنوية) ، وانطفأت الطاقة ، ليحيا فقط الشعور بالنكد والطاقة السلبية . وبهذا انقطع المشهد عن المؤلف ، ليسبح في عجائبية الاشياء .

المبحث الثالث : الشخصيات الدستوبية :

تتباين الشخصيات الدستوبية ، بحسب قاعدة النشأة والظروف ، فكل الشخصيات الدستوبية هي شخصيات لاسوية ، لديها اضطرابات سلوكية تبدأ معها وراثيا وبالتحصيل المكتسب ،



فالبطل هنا هو بطل مضاد، ذو عيوب اخلاقية، وهو المحور الكاسر للنمطية، العاكس لصراعاته الداخلية. وليس من شأن هذه الشخصية ان ترى عيوبها، ولا ان تُسأل عن افعالها، ولا تبرهن صدق حديثها 41. ومن تلك التصدعات رسم احمد مطر شخصية التوكسك او السامة: وهي ذات ابعاد سلبية مدمرة لمن حولها، اذ يميل التوكسيك الى التلاعب بمشاعر الآخرين، فقد يكون قاصدا، او ان يمارس سلوكياته من دون ادراك، فيسبب للمقابل توترا وضغطا نفسيا 42. يقول الشاعر في قصيدة (عزف على القانون):

يشتمني /ويدعي ان سكوتي /معلن عن ضعفه /يلطمني / ويدعي ان فمي قام بلطم كفه /يطعنني /ويدعي
ان دمي لوث
حد سيفه 43.

من دون الايحاء باحتمال ظهور مشكلة، حاول الطرف الثاني ان يتلاعب من خلال قلب الحقائق الى ضدها، فالشاعر متهم بأن (سكوتته) اضعف الطرف الاخر، وان (لطمه) كان صفة من الفم على كف الطرف الاخر، ثم ان (طعنه) جاء ليلوث حد سيف الطرف الاخر، وهذا هو فعلا (العزف على قانون جديد) بتقويض آلة القانون، واستبدالها دلاليا بقانون التوكسيك المتلاعب، فهو قانون قلب الطاولة وجرم الشاعر.

ومن افرازات الدستوبية: الشخصية: السايكو باثية: وهي شخصية ذات سلوك عدواني، وغالبا ماتكون جذابة وساحرة في البداية، يعتليها الغرور والثقة، بعدها تظهر سلوكا مدمرا 44. يقول الشاعر في قصيدة (حجة سخيفة):

بيني وبين قاتلي /حكاية طريفة/ فقبل ان يطعنني / حلفني
بالكعبة الشريفة/ ان اطعن السيف انا بجثتي /فهو عجوز
طاعن /وكفه ضعيفة / حلفني ان احبس الدماء /عن ثيابه
النظيفة/فهو عجوز مؤمن /سوف يصلي بعدما /يفرغ من
تأدية الوظيفة 45

يحمل النص كوميديا سوداء، فالقتل العمد اصبح طرفة وله مبررات: فالقاتل (عجوز طاعن) يتمتع بحكمة، اقنعت الشاعر بأن يجرم في حق نفسه، فالقاتل شخصية مقنعة استطاعت قلب الثوابت بغسل الدماغ، فالقاتل الطاعن في السن متدين حلفه بالكعبة الشريفة وهذا امر لايجوز مخالفته بأن يطعن نفسه، والمبرر المقنع ان (كفه ضعيفة)، ولزيادة اقناعه بالموضوع اردف القسم الاول بأخر (ان احبس الدماء عن ثيابه النظيفة) ليستطيع ان يصلي وهو امر يثير التعاطف. عندها امتثل الشاعر الى مقايضة تبدو منطقية جدا من غير ان يفكر بالاعتراض.

ومن الشخصيات الدستوبية الشخصية (الالستر كراولي) وهي شخصية مأخوذة من صوفي بريطاني هو الستر كراولي، كان كاتباً وشاعراً وعالماً في علوم الشعر،... اسس فلسفة ثيليم، التي تمزج بين الفلسفة والباطنية والسحر: وهي شخصية خبيثة وشيطانية، اشتهرت بالسمعة السيئة، وقد وصفته الصحافة، باخبث رجل في العالم 46. وربما رسم احمد مطر ملامحها في قصيدة (تفاؤل):



دقّ بابي كائن يحمل اغلال العبيد/ بشع/ في فمه عدوى /
وفي كفه نعيّ/ وبعينيه وعيد / رأسه مابين رجليه / ورجلاه
دماء/ وذراعه صديد 47

بنية العنوان خادعة، توجه المتلقي الى مجال عكسي (تفاؤل)، اما مفتتح النص فيفند العنوان، اذ ان الطارق لايطرق بخير، فهو كائن (بشع) دلالة الغرابة والقلق، ومما زاد القلق حمله ل(اغلال العبيد) الامر الذي يثير الاستغراب والريبة، وبالتلقت للتفصيلات (في فمه عدوى)، (في كفه نعي)، (وبعينيه وعيد) يصبح المشهد انغلاقيا، فسوف يقتحم منزل الشاعر بما يحمله من تفصيلات مريبة، عندها تلتقت عين الشاعر الى ان هذا الكائن منهار تماما (راسه مابين رجليه)، بعد ان جلس من التعب والالم، وهذا ما اكدته تفصيلا (رجلاه دماء). وعندها جثم في مكانه فهو لن يتحرك. لتسدل الستارة على الصديد، الذي اغرق المشهد كله فلامفر منه بعد ان اثقل الشاعر نفسيا بالخوف والتوتر

هكذا كانت الدستوبيا مسرحا لصراعات نفسية وصراعات خارجية ولدت سلبيات، خلقت فجوة بينها وبين اليوتوبيا، فاصبحت النقيض الذي حرك ركودية المشهد الادبي .

الهوامش :

1- روايات الدستوبيا العربية، د.كمال عبدالمالك، alemaratalyaom.com.

2- دستوبيا توماس مورتر، د.انجيل بطرس سمعان، 13.

3- السرد الدستوبي في الرواية العراقية المعاصرة، رشا قاسم فياض العبيدي، 4.

4- المصدر نفسه، 12.

5- قراءة في أهم روايات الدستوبيا، محمد علي فقيه، talmagadeen.ne.

6- بين اليوتوبيا والدستوبيا، محمود ابو العدوس، www.aljazeera.net.

7- ينظر: دستوبيا: كوابيس المدن الفاسدة في الادب والفن، علي عباس مراد، 12.

8 - ادب المدن الفاسدة، حنان عقيل، o.ukc.alarab.

9- احمد مطر ويكيبيديا، ar.m.wikipedia.

10- ينظر: اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة، 5.

11- المصدر نفسه، 7.

12- المصدر نفسه، 8.

13- المصدر نفسه، 9.

14- المكان نفسه.

15- رماد الشعر دراسة في البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق، د.عبدالكريم راضي جعفر، 3.

16- اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة، 91.

17- المصدر نفسه، 86.



- 18-المصدر نفسه، 213.
- 19- المصدر نفسه، 43.
- 20- المصدر نفسه، 250.
- 21- المصدر نفسه، 5.
- 22- المصدر نفسه، 110.
- 23- المصدر نفسه، 162.
- 24- المكان نفسه.
- 25- المصدر نفسه، 165-166.
- 26- المصدر نفسه
- 27- غسل الدماغ، تاريخ جديد للسيطرة على الفكر، دانيال بيك، wellcomellection.org.
- 28- ينظر :المكان نفسه .
- 29- اشعار احمد مطر ، 8.
- 30- المصدر نفسه، 224.
- 31- المصدر نفسه، 232.
- 32-ينظر : اعمدة الشعر السبعة دراسات نقدية في شعر عبدالكريم راضي جعفر (رحمه الله) وابحث في نقده الادبي، جمع وتحقيق وتقديم د.علياء سعدي ، 8.
- 33- اشعار احمد مطر ، 321.
- 34- www.diwanalarab.com
- 35- قال الحجاج "يا اهل العراق ،يا اهل النفاق والشقاق ومساويء الاخلاق ..والله اني لأرى رؤوسا قد اينعت وحن قطافها ،وكأنني انظر الى الدماء بين العمائم والحي".بوابة التاريخ الاسلامي ،- اشعار احمد مطر ، 148.
- 37- المصدر نفسه، 303.
- 38- سورة البروج ،الآيتان 21-22.
- 39- اشعار احمد مطر ، 357.
- 40- المصدر نفسه، 313.
- 41- ينظر : النقد الثقافي دراسة في الانساق الثقافية ،د.عبدالله الغدامي ، 195.
- 42- ينظر : الشخصيات التوكسيك في حياتنا ،alwatanner.net.
- 43- اشعار احمد مطر ، 190.
- 44- ينظر : الشخصية السيكوباتية العراض وطرق التعامل،سارة وائل ،youm7.com.
- 45- اشعار احمد مطر 194.
- 46-ينظر : ويكيبيديا ،ar.m.wikipedia.org.
- 47- اشعار احمد مطر ، 473.

المصادر :

-القرآن الكريم

-احمد مطر ويكيبيديا ،ar.m.wikipedia.org



- ادب المدن الفاسدة ، حنان عقيل ، alarab.co.uk.
- اشعار احمد مطر الاعمال الكاملة دار فروس للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2012.
- اعمدة الشعر السبعة دراسات نقدية في شعر عبدالكريم راضي جعفر وابحث في نقده الادبي ، جمع وتحقيق وتقديم د.علياء سعدي ، دار الفرات للطباعة والاعلام ، بابل ، 2020.
- بين اليوتوبيا والدستوبيا ، محمود ابو العدوس ، www.aljazeera.net.
- بوابة التاريخ الاسلامي ، ar.m.wikipedia.org.
- دستوبيا توماس مورتر ، د.انجيل بطرس سمعان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 ، 1987.
- دستوبيا كوابيس المدن الفاسدة في الادب والفن ، علي عباس مراد ، دار مجلة الاكاديمية ، بغداد ، ط1 ، 2021.
- رماد الشعر دراسة في البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق ، د.عبدالكريم راضي جعفر ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، 1998.
- روايات الدستوبيا العربية ، د.كمال عبدالملك ، alemaratallyom.com.
- السرد الدستوبي في الرواية العراقية المعاصرة 2014-2022 ، اطروحة دكتوراه ، رشا قاسم فياض العبيدي ، كلية الاداب جامعة ذي قار 2023.
- الشخصية السيكوباتية الأعراض وطرق التعامل ، سارة وائل ، alyom7.com.
- الشخصيات التوكسيك في حياتنا كيفية فهمها والتعامل معها ، alwatanner.net.
- غسل الدماغ ، تاريخ جديد للسيطرة على الفكر ، دانيال بيك ، wellcomellection.org.
- قراءة في أهم روايات الدستوبيا ، محمد علي فقيه ، almagadeen.net.
- النقد الثقافي دراسة في الانساق الثقافية ، د.عبدالله محمد الغدامي ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2000.
- وكيبيديا ، ar.m.wikipedia.org.